الافاعي واقوال العرب فيها

رأينا لحاجتنا فصلاً مسهباً في الافاعي جمع فيهِ كثيراً من اقاصيص العرب التي احلَّتها كتَّابهم محل الحقائق فلخَّصنا منهُ السطور التالية وعقَّبنا عليها بما نتم بهِ الفائدة

قال "حدَّثنا ابو جعفر الكفوف النحوي العنبري واخوهُ روح الكاتب ورجال من بني العنبر ان عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد . زعموا انها اذا انتصف النهار واشتدَّ الحر وامتعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رتع مركوز او عود نابت فيجيءُ الطائر الصغير او الجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدَّة حرِّهِ ووقع على رأس الحية كأنها عمود نبتت عليهِ فان كان جرادةً اوجعلاً او بعض ما لا يشبهها ابتلعته وبقيت على انتصابها . وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبهها كتتهُ والتصرت . وان ذلك دأبها ما منع الرمل جانبهُ في الصيف وانتيظ في انتصاف النهار والهاجرة . وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانهُ سيقوم لهُ مقام الجذل للجرباء الى ان يكن الحر ووهج الرمل . وفي هذا الحديث من العجيب ان تهتدي الحية الى مثل هذه الحيلة وان يجهل الطائر الفرق بين الحيوان والعود وان لا تكتوث الحية للرمل الذي صار كالجمر". انتهى

نقول وهذه القصة على غرابتها محتملة ولها امثلة كثيرة في احتيال الحيوان على صيده وتشكله باشكال الاوراق والاغصان والعيدان اغراء لما يصطادهُ من ضروب الحيوان او اختفاء عما يكون هو صيداً لهُ . ولكننا لم نعثر في ما طالعناهُ عن الافاعي في كتب المحدثين على ما يؤيدها فقد ذكر ترسترام وفيرار وبروس كثيراً من نوادر الاصلال التي في صحاري مصر وبلاد العرب ولكنهم لم يذكروا ان منها ما ينتصب كالعود . والغالب ان الصل يقيم في الرمل وينصب رأسهُ قائماً ولكنهُ لا ينصبهُ شركاً للطيور بل تحفزاً للوثوب على ما يدنو منهُ من الحيوانات . قال القانون ترسترام انهُ كان راكباً مرةً في الصحراء فوقف فرسهُ بغتةً وجعل يرتجف وينصبَّب عرقاً ويبحث عن السبب الذي اوقفهُ فاذا الصل نائمهُ في حفرة من الارض وعيناهُ تقدحان شرراً وهو متهيء للوثوب على الفرس . وهو اذا لدغ الانسان قتلهُ في نصف ساعة واذا لدغ الفرس قتلهُ في بضع ساعات

اما وقوع الطيور على الافاعي فذكرهُ كثيرون من المحدثين وصوَّروهُ كما ترى في الصورة التالية وقالوا ان الافعى تفتح فاها فيصيب الطائر شيء من الذهول ويرمي نفسهُ فيهِ

فتخدره نسمة باردة. ولعلَّ العرب شاهدوا الافاعي تفعل ذلك فعلموا بان الطيور تقع على الافعى حسبة انها عودٌ تقف عليه

وذكر الجاحظ ان اذناب الافاعي تنبت بعد انقطاعها واما نابها فلا تنبت في اقل من ثلاث ليالٍ وانهُ اذا أُدخل في فيها حمّاض لا ترج وانطبق فيها الاعلى على الاسفل فلا تقتل بعضتها ابدًا كالمغنطيس الجاذب للحديد فانهُ اذ حُكَّ عليهِ الثوم لم يجذب الحديد

تقول اما كون اذنابها تطول بعد قطعها فمحتمل لان اذناب العظايات تنبت بعد قطعها واما انيابها فلا تنبت ولكن لها انيابًا اخرى صغيرة تطول فتقوم مقامها. وكذلك زوال سمها بحماض

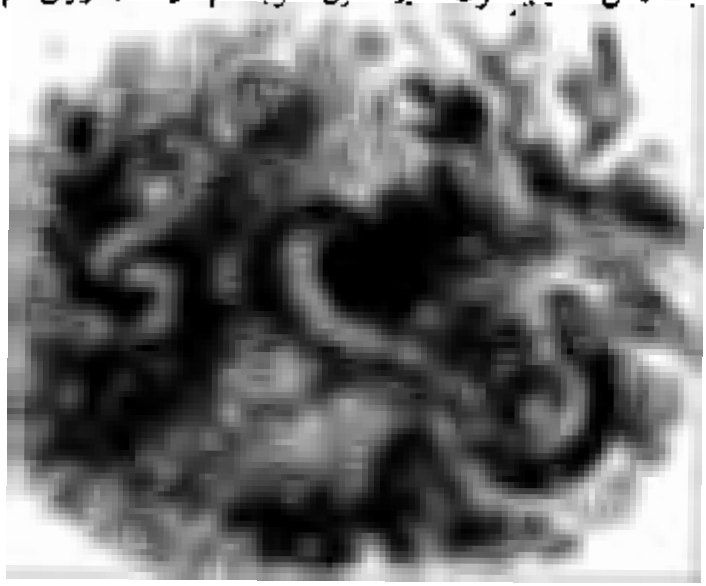

الاترج محتمل اذا كان السم قلويًّا. ولكن لا محمل قولهُ من ان الثوم اذا حُكَّ على المغنطيس منعهُ من جذب الحديد

قال والافعى تلد وتبيض وذلك انها اذا طرقت بيضها تحجم في جوفها فتري بفراخها اولادًا حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيوانًا مثلهُ

تقول والصحيح ان الافاعي انواع فبعضها يبيض بيضًا وبعضها يلد ولادةً وبعضها يبيض ويلد معًا فيخرج بعض اولاده بيضًا وبعضها فراخ . واما نبيض اما ان تحضن بيضها كالطيور واما ان تتركهُ لتخرج الفراخ منهُ بحرارة الارض والثاني هو الغالب . وقد ارتاب العلماء في ان الافعى تحضن بيضها حضنًا الى سنة ١٨٤٠ وحينئذٍ كانت افعى افريقية في بستان النبات

باريس فباضت ١٥ بيضة في ٦ مايو وكان يضعها مستطيلاً لدن القشر فجمعتهُ والتفّت عليهِ حتى غطتهُ كلهُ واقامت على ذلك ستة وخمسين يوماً لا تبدي حراكاً الاَّ اذا حاولَ احد لمس بيضها . وفي الثاني من يوليو انشق عشر بيضة وفي اليوم التالي خرج منها فرخ ثم خرجت ثمانية فروخ في الايام الاربعة التالية ومذر باقي البيض . وعاشت الفراخ وسلخت لما صار عمرها اسبوعين ثم صارت تبتلع العصافير الحية كأُمها

قال وفي الافاعي من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل مدجٍ فتبقى كذلك اياماً لا تموت فامرت الحاوي فقبض على خرزة عنقها فقلتُ لهُ افصلها من الخرزة التي تليها فصلاً دقيقاً فما فتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتةً . يزعم انهُ قد ذبح غيرها من الحيات فعاشت شبيه ذلك ثم انهُ فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالافعى فماتت باسرع من الطرف

نقول ويشبه ان يكون المراد بذلك ان الافعى لا تموت اذا ذُبحت ما لم تصبها صدمة عصبية بعد ذلك

قال وفي صعود الافاعي وفي مشيها خلف الرجل الشديد الخضر او عند هربها منهُ حتى تفوت وتسبق وليست بذات قوائم وانما تساب على بطنها وفي تدافع اجزائها وتناوتها في حركتها الكل من ذات نفسها دليلٌ على افراط قوة بدنها . ومن ذلك انها لا تمضغ انما تبتلع فربما كان في البضعة او في الشيء الذي ابتلعتهُ عظم فتأتي جذع شجرة او حجرًا شاخصاً فتنطوي عليهِ انطواء شديداً فيتحطم ذلك العظم حتى يصير دقاقاً

نقول ولا شبهة في قوة الافاعي اما انيابها فيكون بحركة اضلاعها فهي كالقوائم لها وهي لا تمضغ طعامها ولكنها تبتلعهُ كما هو وقد يبقى حيًّا في بطنها مدة . تذكر انا شققنا بطن الافعى مرارًا وكنا نجد فيهِ فارةً حية او ضبًّا حيًّا . ولم نرَ احدًا من علماء الحيوان ذكر انطواءها حول جذع الشجرة او الحجر الشاخص حتى تكسر عظام الحيوان الذي ابتلعتهُ ولكنهم ذكروا انها تنطوي على الحيوان الكبير قبل ابتلاعهِ حتى تكسر عظامهُ كما ترى في الصورة التالية ويسهل عليها ازدرادهُ ويساعدها على ازدرادهِ لعابها الكثير الذي ترطبهُ بهِ وهي تزدردهُ

قال وليس في الحيوان شيءٌ هو اصبر على الجوع من حية لانها ان كانت شابة فدخلت في حائط فتتبعوا موضع مدخلها بوتد او بحجر ثم هدموا ذلك الحائط وجدوها هناك منطوية وهي حية . فان هرمت صغرت في بدنها واتسعها النسيم ولم تشتهِ الطعام وقد قال الشاعر وهو جاهلي

فابعث لهُ من بعض اعراض اللمِ لمةً من حنش يعمى اصم
قد عاش حتى هو لا يحشى بدم فكلما افضل منهُ الجوع سم

ومن أعاجيبها أنها وإن كانت موصوفة بالشره والنهم وسرعة الابتلاع فهي في الصبر في أيام الشتاء ما ليس لغزهيد ثم هي بعد ما يصبرها الجوع لا تستغني عن الطعام

نقول لقد أصاب سيف صبر الأفعى على الجوع وكفائها بالقليل من الطعام فقد مر بالاسكندرية أن أفعى الماء الانكليزية تكتفي بضفدعين أو ثلاثة في السنة كلها وهي قد تصبر على العطش أيضاً وكثير كالحيوانات الثانية تنقطع عن الطعام الشتاء كله

قال والتعابين أحدى القوائم ويزعمون أنها ثلاثة أجناس لا يجمع فيها رقية ولا حيلة كالثعبان والأفعى والصندية ويقال أن ما سواها فانما يتقي مع ما يعدّه من الفزع . ويزعمون أن رجلاً قال (أي يوم نصف النهار) تحت شجرة فتدلت عليه حية منها فعضت رأسه فانتبه

فحمر الوجه فحك رأسه والتفت فرأى حية فوضع رأسه ونام وقام مدة طويلة لا يرى بأساً فقال له بعض من كان رأى حاله هل علمت من أي شيء كان انتباهك تحت الشجرة قال لا قال أن الحية الثانية نزلت عليك حتى عضت رأسك فلما جلست لتلتصت عنك وتراجعت ففزع وصرخ صرخة كانت فيها نفسه . وكأنهم يزعمون أنه لا فزع واضطراب وقد كان ذلك السم مغمور مكنوناً فزال مانعه وتفجرت منافذه الى موضع التحميم والدماغ وعمق البدن فالحق موضع العقد الذي انعقدت عليه جزؤه وانحلاطه

نقول لقد أحسن الجاحظ في تسميته كل ذلك في الزمن ذ يريد بعد التون الذي يعقب كتبه لان الافاعي السامة كثيرة وفي نقل بعض ولا مشاركة للفزع في ذلك ولا وجه لما تكلفه من التعليل

وقال كنت يوماً عند ابي عبد الله احمد ابن ابي داود وكان عنده ابن ماسويه[1] وبختيشوع بن جبريل[2] فقال من ينفع الترياق من نهشة افعى فقال بعضهم اذا عضت الافعى فادركت قبل ان تنقلب نفع الترياق وان لم تدرك لم ينفع لانهم اذا قلعوا من الترياق قتلهُ السم وان كثروا منهُ قتلهُ الفاضل عن مقدار الحاجة . قلت فان ابن الخجوز خبّرني بانها ليست تنقلب لخ السم وافراغهِ ولكن الافعى في نابها عضل واذا عضّت استفرغت ادخال الناب كلهِ وهو اخبر اعضل فاذا انقلبت كان اسهل لنزعهِ وسلهِ قاما لعب السم وافراغهِ فلا . قال والله لعلهُ ما قالهُ . قلت ما اسرع ما شككت . ثم قلت لهُ فانا وضعوا الترياق واجتلبوا الافاعي وضعوا وعزّموا على انهُ لا ينفع الاَّ بدرك الافعى قبل ان تنقلب وكيف صار الترياقُ بعد الانقلاب لا يكون الاَّ في احدى منزلتين اما ان يقتل بكثرتهِ واما ان لا ينفع بقلتهِ فكأن الترياق ليس تفعهُ الاَّ المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة . ولكني اقول لك كيف يكون تفعهُ . اذا كان الترياق جيداً قوياً وعوجل فسُقي المقدار الاوسط قبل ان يبلغ السميم ويغوص في العمق وعلى هذا وُضع . وهم كانوا احزم واحذق من ان يتكلفوا شيئاً ومقدارهُ من النفع لا يُوصَل الى معرفتهِ . ثم قلتُ لهُ وما علمك وباي سبب علمتَ انها تجُّ من جوف نابها شيئاً ولعلهُ ليس هناك الاَّ مخالطة جوهر ذلك الناب لدم الانسان أوَ لسنا نجد من الناس مَن يعضُّ صاحبهُ فيقتلهُ ويكون معروفاً بذلك . وقد تقرُّون ان الهندية والثعبان يقتلان اما لمخالطة الريق الدم واما لمخالطة السن الدم من غير ان تدّعوا ان اسنانها مجوفة . وقد اجمع جميع اصحاب التجارب ان الحية تُضرَب بقصبة فتكون اشد عليها من العصا . وقد يضرب الرجل على جلدهِ بقضبان اللوز وقضبان الرمان وقضبان اللوز اعلك والدن ولكنها اسلم وقضبان الرمان اخف ولكنها اعطب . وقد يطأ الانسان على عظم حية وابرة عقرب وهما ميتتان فيلقى الجهد وقد يخرج السكين من الكور وهو محمّى فيغمس في اللبن فتى خالط الدم قام مقام السم وبعض الحجارة يكوى بها رخو الاورام حتى يفرقها ويخمصها من غير ان يكون نفذ اليها شيء منهُ وليس الاَّ الملاقاة . وقد روو انهُ قيل لجالينوس ان ههنا رجلاً يرقي العقارب فتموت او تحلُّ فلا تعمل فرّاهُ يرقيها ويتفل عليها فدعا به بحضرة جماعة وهو على الريق ودعا بعقارب فتغدّى معهُ ثم دعا لهُ بالعقارب فتفل عليها فلم يجد لعابهُ يصنع شيئاً الاَّ ان يكون ريقاً . وهو حديث يدور بين

(١) هو يوحنا بن ماسويه الطبيب النصراني السرياني كان من اطباء هرون الرشيد وكان معظماً ببغداد وله تصانيف جليلة

(٢) نسبة بختيشوع بن جيورجيس او جبريل ان بختيشوع وكلاهما طبيب مشهور من اطباء الرشيد

اهل الطب وانت طبيب . فلم ارَهُ في يومهِ ذلك قال شيئًا الاَّ من طريق الحزر والحدس والبلاغات انتهى

نقول وكنا نودُّ ان نحضر ذلك المجلس ونسمع علماء العرب يتناظرون في هذا الموضوع . ابن ماسوية وابن جبرئيل طبيبان حكيمان قليلا اللفظ كثيرا المعنى يكرهان الجدل ويميلان الى التسليم ويخشيان من بت الاحكام في المسائل الخلافية كأنهما من طائفة اللاأدريين . والجاحظ منطقي من اهل الجدل كثير الكلام دقيق الانتقاد يأخذ بالمسلمات ويميل الى المغالطات . وحقيقة ما اختلفوا فيهِ ان السم مادة سائلة تنفث من اجربة في افواه الافاعي وتمرُّ في ثقب او ميزاب في انيابها لان من الانياب ما هو مثقوب ثقبًا ومنهُ ما فيهِ ثلمة كالميزاب فاذا كان الجراب كثير السم وتمكنت الافعى من اللسع وكان سمًّا من الشديد الفعل وكان الملدوغ من الذين يتأثرون بفعل السم قتلت في نصف ساعة او اكثر ولكن اذا كان السم قد فقد بلدغة سابقة او اذا لم تتمكن الافعى من اللدغ او اذا كان السم ضعيف الفعل طبعًا او كان الملدوغ من الذين لا يفعل السم بهم شديدًا لم يقتلهُ السم . ومباشرة الناب للجرح لا تميت اذا لم يكن هناك سمٌّ . اما ترياق القدماء فالمرجح عندنا انهُ لم يكن يفيد شيئًا . واما ما قيل عن الضرب بالقصبة وقضيب الرمان فمن المسلَّمات التي لا دليل على صحتها . واما كون الريق يضرُّ بعض الحيوان فصحيح ولكن ليس كما اوردوهُ

قال وحدثني بعض اصحابنا عن سكر الشطرنجي وكان احمق العالمين واحذقهم بلعب الشطرنج وسألهُ عن خرق في خزامة انفهِ فذكر انهُ خرج الى الجبل يكتب بالشطرنج فقدم البلدة وليس معهُ الاَّ درهم واحد وليس يدري انجح ام يخفق ويجد صاحبهُ الذي اعتقدهُ ام لا يجدهُ فورد على حوَّاء وبين يدهِ جوَن عظام فيها حيَّات جليلة والحية اذا عظمت لم تكن غايتها النهش والعض ولكنها لا تعض الاَّ للاكل وربما كانت الحيات عظاماً جدًّا ولا سم لها ولا تعقر بالعض كحيات الجولان . وفي البادية حية يقال لها الحفاث تأكل الفار واشباه الفار وطا وعيد منكر ونفخ في ظهار للفصولة وليس وراء ذلك شيء والجاهل ربما مات من الفزع منها . وربما جمعت الحية السم وشدة الجرح والعض والابتلاع وحطم العظم . فوقف سكر على الحوَّاء وقد اخرج من جونتهِ اعظم حيات في الارض وادَّعى نفوذ الرقية وجودة الترياق فقال لهُ سكر خُذ مني هذا الدرهم واتركني رقية لا تضرُّني معها حية ابدًا . قال فاني افعل . قال فارسل قبل ذلك حية حتى ترقيني بعد ان تعضني فان انقت علمت ان رقيتك صحيحة . قال فاني افعل فاختر يتهنَّ شئت فاشار الى واحدة مما تعضُّ للاكل دون السم فقال

دع هذه فانها ان قبضت على الحبل لم تفارقك حتى تقطعك. قال فاني لا اريد غيرها وظنَّ انهُ انما رواها عنهُ لنفسية فيها. قال اما هذا البيت الاَّ هذه فاختَرْ موضعاً من جسدك حتى ارسلها عليهِ فاختار انفهُ. فاشدهُ وخوَّفهُ فابى الاَّ ذلك او يردَّ عليهِ درهمهُ. فاخذها الحوَّاء وطوَّقها على يدهِ كيلا يدعها تنكرُّ فتقطع انفهُ من اصلهِ ثم ارسلها عليهِ فلما انشبت احد نابيها في شق انفهِ صرخ صرخة جمعت عليهِ اهل تلك البلدة ثم غشي عليهِ فأخذ الحوَّاء فوضع في السجن وفتحوا تلك الحيات وتركوهُ حتى افاق فتطوَّعوا بحملهِ لحمايتهُ مع المكاري ورددوهُ الى البصرة وبقي اثر نابها في انفهِ الى ان مات

نقول ومفاد ذلك ان الجاحظ واهل زمانهِ كانوا يعلمون أن من الحيات ما لا سمَّ فيهِ وان كبار الحيات لا سموم لها في الغالب وان منها ما يتظاهر بالقوة والصولة ولا سمَّ لهُ وان نفع الرقية زعم من المزاعم وذلك كلهُ صحيح

قال والعرب تقول اخلم من حيَّة لان الحيَّة لا تتخذ لنفسها بيتاً وكل بيت قصدت نحوهُ هرب اهلهُ منهُ واخلوهُ لها. والورل يقوى على الحيات ويأكلها اكلاً ذريعاً. وكل شدَّة يلقاها ذو جحر منها فهي تلقى مثل ذلك من الورل. والحيَّة واسعة الشحو (فتحة الفم) وهي تبتلع فراخ الحمام. وزعم صاحب المنطق انهُ ظهرت حية لها رأسان فسألتُ اعرابياً عن ذلك فزعم انهُ حق فقلت لهُ اي جهة الراسين تسعى ومن ايهما تأكل وتعض فقال اما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلُّب كما يتقلَّب الصبيان على الرمل واما الاكل فانها تعشى بهم وتغدى بهم واما العض فانها تعض برأسيها معاً. فاذا به اكذب البرية وهذه الاحاديث وما يشاكلها مما يزيد في الرعب منها

نقول ولقد احسن الجاحظ في تنقيح هذا الاعرابي باكذب البرية. ولكن من الحيات نوع صغير قصير طولهُ نحو قدمين وهو حية الرمل المصرية (Eryx jaculus) ولا سمَّ فيها وذنبها قصير كأن لا ذنب لها فيقبض عليها الحواة ويعالجون ذنبها بالقطع حتى يصير كرأسها ويزعمون انها برأسين وكثيراً ما يفعلون ذلك في بلاد الهند وهذا اصل الزعم بوجود حية برأسين. اما ظلم الحية لغيرها من الحيوانات باغتصاب اجحرتها فلم نرَ لهُ ما يثبتهُ في اقوال المحدثين ولكنهُ ليس ببعيدٍ عن التصديق لان اكثر ذوات الاجحار كالضباب والفيران والجرذان طعام الافاعي وشأن ما يكون طعاماً لغيرهِ ان يهرب من وجههِ. وستأتي لمحة الكلام على الافاعي في الجزء الثاني